هارتموت روزا ونقد الحداثة المتأخرة

Hartmout Roza and critique of late modernity

هشام معافة،

جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري ،

hichem.maafa@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/09 تاريخ القبول: 2023/04/08

ملخص:

إن هدف "هارتموت روزا" من مشروعه هو نقد المجتمعات الحداثية المتأخرة والتأسيس لعلاقة أصيلة مع العالم بعد أن اهتلكت هذه العلاقة وتآكلت نتيجة "للتسارع"، فما يميز المجتمعات الحديثة هو تسارع ايقاع الحياة وهو يرجع الى تزايد هائل في معدل التسارع التقني في الوقت الذي يتقلص فيه الزمن ، اذ تعيش أغلبية الذوات في الحداثة المتأخرة تجربة الافتقار إلى الزمان وما يترتب عنه من قلق، وهذه المظاهر يعتبرها "هارتموت روزا" كأشكال سلبية من التسارع، لذلك أسس لسوسيولوجيا معيارية غرضها الكشف عن اشكال الاغتراب والأمراض المتمخضة عن تحولات الزمن داخل هذه المجتمعات. بيد أن علاج ما يخلفه التسارع من أمراض واغتراب ليس التباطؤ بل ينبغي التفكير فيما وراء مفهوم الزمن بحثا عن إرساء علاقة أصيلة بالعالم، لذلك اقترح مفهوما جديدا هو "الصدى". فالصدى بما هو عكس لعملية التسارع وعلاج له، لا يعبر عن علاقة الذات بالزمن بل علاقتها بالعالم.

الكلمات المفتاحية: صدى، تسارع، حداثة متأخرة، العالم، اغتراب.

Summary :

The gool of "Hartmout Roza" in his project is to critique late modern societies and establish an original relationship with the world after this relationship has been destroyed and eroded as a result of acceleration, what distinguishes modern societies is the acceleration of the rhythm of life, And it is due to a huge increase in the rate of technical acceleration a time when time is shrinking, as the majority of people in the late modernity live the experience of contempt for time and the consequent anxiety. These manifestations are regarded by "Hartmout Roza" as negative forms of acceleration; therefore, he founded of sociological normative its purpose revealing forms of alienation and diseases generated of the transformations of time within these societies.

However, the therapy of post acceleration diseases and alienation is not a slowdown deceleration, it should be thought beyond the concept of time in search of establishing an authentic relation in the world, so he proposed a new concept which is "the resonance". The resonance as a contrast of acceleration process and its therapy does not express the subject's relation to time; but rather his relationship to the world.
Keywords: Resonance; Acceleration; Late Modernity; World; Alienation.

hichem.maafa@univ-constantine2.dz

أولا. مقدمة:

"هارتموت روزا" "**Hartmut Rosa**" (1965- ...) أحد أهم ممثِّلي الجيل الرَّابع لمدرسة فرانكفورت النقدية، سار في الدرب نفسه الذي سلكه رواد المدرسة برسمه لمعالم مشرع جديد غرضه الكشف عن تناقضات الحداثة الغربية المتأخرة. يُعايش الانسان الغربي في الحداثة المتأخرة تجربة الافتقار إلى الزمان وما يترتب عنه من قلق نتيجة لظاهرة التسارع التي يعتبرها "روزا" صورة جديدة من الاغتراب. وفي لدن هاته السُّلطة التي تجعل الذوات دائماً تحت وطأة مطالب الاستعجال تنهار استقلالية الأفراد والشروط التي تضمن وجودهم؛ فالحداثة التي أسست لمفهوم فردية ذرية تمارس استقلاليتها بفضل ما تتمتع به من حرية اختيار صارت نتيجة لفلسفتها عن الهيمنة والاستقلالية عائقاً يقف أمام تحقيق الذوات لعلاقاتهم الأصيلة بالعالم. تقود أشكال التسارع السلبية كما تحدث عنها "روزا" إلى تشوه العلاقة بين الأنا والعالم، فزيادة على فقدان الذات وتآكل الهوية الثابتة، يفقد الانسان الحداثي علاقته الأصيلة بالعالم، ومن ثم أضحى صمت العالم القائم على صمم العلاقة أنا- عالم صورة من صور أمراض الحداثة. يتقدم مشروع "هاتموت روزا" كسوسيولوجيا غرضها اختبار العلاقة بالعالم والانفتاح على تحليل وصفي ونقدي قلق تجاه واقع المجتمعات الحداثية الراهنة، إذ تناقش جل كتاباته مفاهيم مستحدثة عمل على نحتها واعطائها دلالات مفهومية عميقة تلامس أهم ظواهر المجتمعات الحداثية

المتأخرة مثل: التسارع والاغتراب والصدى وجعل العالم متاحا، التي اعتبرها مفاهيم مفتاحية لكل نقد للحداثة. وعليه نصوغ إشكالية هذا المقال على النحو التالي: هل يمكن التأسيس لعلاقة أصيلة بين الأنا والعالم على مفهوم الصدى؟ بعد أن فقد الانسان الغربي الحديث علاقته بالعالم وتآكلت جراء ما يعايشه من تسارع وتيرة الحياة الاجتماعية؟

ثانيا. معضلة الحداثة المتأخرة وتآكل العلاقة بالعالم:

عرض "هارتموت روزا " مشروعه عن نقد الحداثة المتأخرة في كتابه "الصدى، سوسيولوجيا العلاقة بالعالم" " Résonance: une sociologie de la relation au monde"، ويمثل الكتاب حوصلة لنظرية اجتماعية تستجمع مطارحات قيِّمة ذات صلة بالمجتمع والنظرية الاجتماعية المعاصرة. وهو فضلاً عن ذلك، محصلة لمسار نظري طويل ورحب فرض نفسه منذ نشره لكتابه "التسارع" "Accélération"سنة 2005 بما هو نقد اجتماعي للزمن، فأضحى، بلا مراء، مدخلاً ضروريا لنظريته الاجتماعية عرض في متنه تحليلا للمجتمعات المعاصرة وانتهى الى إعادة تصنيفها داخل زمن الحداثة الطويل. تتجاوز نظريته الجديدة عن الحداثة كل المفاهيم التقليدية التي انبنت عليها: فهي ليست مشروعا عقلانياً كما دعا اليه "ماكس فيبر" "Max Weber" (1864- 1920م) أو "الفردية" عند "جورج زيمل" "Georg Simmel" (1858- 1918م)، أو "التفاضل الوظيفي" "اميل دوركايم" "Émile Durkheim" (1858- 1917م) فحسب، ولكنها عبارة عن مشروع مستحدث يتميز بطرحه لمفهوم جديد هو "التسارع" الذي يؤثر في عمق البنى الاجتماعية بالقدر نفسه الذي يؤثر في الذوات الاجتماعية.

استلهم "هارتموت روزا" مشروعه النقدي من ملاحظته لوجود "عدم تزامن" أو "توتر زمني" "Désynchronisation" داخل سيرورات المجتمعات الحداثية المتأخرة، وانطلاقاً منها طوَّر منظورية جديدة بصياغة مشروع طموح عن سوسيولوجيا وصفية معيارية غرضها توصيف صور الاغتراب والأمراض

المتمخضة عن تحولات الزمن داخل المجتمعات الحداثية المتأخرة. وكتابه "الصدى" لا يحيد عن هذا التَّوجه: فحتى نفهم المسار النقدي لمجتمعات الحداثة المتأخرة كمجتمعات خاضعة لسيرورة "التسارع" بحيث تُخلف شكلاً جديداً من الاغتراب بقدر ما تحققه من تقدم، ينبغي البحث عن تصور جديد يسمح بالتفكير في عكس عملية التسارع بجميع أشكاله. بيد أن هذا المفهوم ليس هو "التباطؤ" "Décélération"، علينا التفكير –برأيه- فيما وراء البنى الزمنية بإعادة إدماج سؤال "العالم". ويقترح كحل لعكس عملية التسارع مصطلح "الصدى" " Résonance"؛ ويمكن أن نصوغ المعادلة بعبارة "هارتموت روزا" ذاته على النحو التالي: "إذا كان التسارع هو المشكلة، فإن الصدى هو ربما الحل"[1]. بيد أن مفهوم "الصدى" كعكس لعملية "التسارع" لا يعبر عن علاقة الذات بالزمان ولكن عن علاقتها بالعالم، فلا مناص من إعادة التفكير في التسارع من زاوية "تآكل" "Erosion" العلاقة بالعالم، وتجاوز وجهة النظر الوحدوية والاختزالية التي تحصرها ضمن معيار فريد ووحيد هو الزمن. يعد هذا المنعطف الذي سلكه "روزا" اعترافاً بصعوبة تأسيس تصور عن "الحياة الخيرة" "vie bonne" باعتماد قاعدة فريدة وهي نقد البنى الزمانية للمجتمعات الحداثية المتأخرة. يتخذ هذا التحول اذن شكل سوسيولوجيا طموحة عن العلاقة بالعالم ونظرية نقدية متجذرة داخل رؤى عملية للحياة السعيدة، أو يتقدم مشروعه بالأحرى كسوسيولوجيا غرضها اختبار العلاقة بالعالم والانفتاح على تحليل وصفي ونقدي قلق تجاه واقع المجتمعات الحداثية الراهنة.

لا يسعنا الوقوف على دلالة هذا التَّحول نحو سوسيولوجيا العلاقة بالعالم -كما طوَّرها "روزا" في "الصدى"-إلا إذا طرحناها في علاقتها بكتاباته الأولى بغرض معرفة موقعها ضمن مشروعه الذي يروم التنظير النقدي للحداثة الأولى. وحتى يتسنى لنا ذلك من الضروري العودة الى مشروع "تشارلز تايلور" " Charles Taylor" (1931م- ...) الذي كرَّس له "هارتموت روزا" أغلب أعماله الأولى، والذي

يرجع إليه باستمرار وفي مواضع عديدة. لقد أفاد "هارتموت روزا" كثيرا من فلسفة "تشارلزز تايلور" الأخلاقية والسياسية، على نحو لا نجانب الصواب إذا ما قلنا إن مشروعه عن سوسيولوجيا العلاقة بالعالم ما هو إلاَّ تطوير لمشروع "تايلور" واستثمار له. ويعود اهتمامه به إلى مرحلة مبكرة من فكره، وتحديداً في أطروحة الدكتوراه التي أنجزها ونشرت سنة 1998 حول الفلسفة السياسية والاخلاقية[2] . كانت آنذاك أعمال "تايلور" موضوعاً لنقاش حيٍّ في الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وتحديداً في أعقاب نشره لكتاباته المتمركزة حول الفلسفة اللِّيبيرالية الحديثة. لقد تأثر "هارتموت روزا "في أعماله بهذه الفلسفة إلى درجة أن الوقوف على هاته المنظورية ضروري لفهم رهانات عمله السوسيولوجي. وسنحاول فيما يلي عرض المحاور الكبرى لهذه الفلسفة بغرض تنضيد مناحي الاستثمار بينهما.

طَوَّر "تشارلزز تايلور" مقاربة فلسفية متمركزة حول العلاقة بالعالم في مقابل الأطروحات الليبيرالية القائمة على تصورها لفردية (ذاتية) تمارس استقلاليتها بفضل ما تتمتع به من حرية اختيار، مُتوسِّلاً في تطويرها بفكرة "موريس ميرلوبانتي" "Maurice Merleau-Ponty " (1908- 1961م) التي بموجبها يشكل "جسد العالم" أساس كل معرفة، فالتفكير في العالم هو أن نخبره أوَّلا. إنَّ العالم برأي "ميرلوبانتي" ليس ما أفكر فيه ولكن ما أعايشه"، لذا نظر إلى الخبرة بالعالم على أنَّها تجربة أولية وهي التي تمنح الكائنات صفتها ككائنات في العالم. يحذو "تايلور" حذو "ميرلوبانتي" مستعيراً مشروعه الفينوميتولوجي بغرض العودة إلى العالم، أو التأسيس لعلاقة بالعالم تسبق كل معرفة نُكوِّنُها عنه؛ كل إدراك للذات يرجع الى إدراك العالم والتفكير فيه عوضاً من الانغلاق على وعي تأملي معطى مسبقاً، كل ذلك خلافاً للنَّظريات الليبرالية التي تجعل من الفرد الحرَّ المتشكل مسبقاً نقطة انطلاق. بالنسبة لـ"تايلور" ليست الذات المستقلة معطاة مسبقا إنَّها امكانية تتكوَّن في علاقتها بالعالم، واذاك فهو يقلب

منظورية الفلسفة الليبيرالية الفردانية رأساً على عقب: فالعلاقة بالعالم هي المعطى الأولي لا استقلالية الذات، وفي لدنها، أي العلاقة بالعالم تتشكل استقلالية الذات وحرية الاختيار [3]. يتأثل نقد "تايلور" لنظرية استقلالية الفرد على الحجة التي بموجبها لا تصير الذات موضوعاً للتفكير إلا بفضل تأويلية الذات التي تستهدف - من خلال فاعلية الفهم الذاتي التي تفتح أفقاً للمعنى - شيئاً آخر غير الذات متجذر في العلاقة الأصلية بالعالم. إذ ينكشف ما ستصير عليه الذات، أي هويتها، في هذا التأويل الذاتي. والمحصلة لا يعود التفكير في الهوية تأملاً ذاتياً ولكن كنموذج للعلاقة بالعالم يتشكَّل في النشاط التأويلي الذاتي، والذي تصدر عنه الرغبات والقيم والمعتقدات المميزة للأفراد بفضل طريقتهم في الارتباط بالعالم. فما يشكل هوية الذات هي الطريقة التي تجعلها قادرة على أن تتقبل –أو ترفض- أشياء العالم؛ إذ تلعب الذات الأخلاقية دوراً خلاَّقاً ونقدياً ذاتياً في عملية تشكيل الهوية[4]. والشَّاهد على ذلك؛ نلفي بعض النماذج في تشكُّل الهوية على أنَّها أكثر نجاحاً من غيرها حينما تجيب -حسب "تشارلزز تايلور"- عن تطلعات ورغبات تتكشف بصورة بعدية في حركة التأويل، ومن ثم فهو ينفي عنها أي محتوى أو مضمون موجود قبلاً داخل الحركة التأويلية ذاتها.

يقترح "تشارلز تايلور" تبعا لذلك أخلاقاً جديدة متجذرة في تجربة معنى العالم، يطلق عليها اسم "أخلاق الأصالة" "Ethique de l'authenticité" ليُميِّز بها تَشَكُّل الهويات الأصيلة كمحصلة للعلاقة بالعالم عن الهويات غير الأصيلة أو المُسْتَلِبَةُ، وهي أخلاق نَتَعرَّف في داخلها على الأشكال الأكثر تحققاً عن العلاقة بالعالم، والتي تشكل في النهاية هوية الفرد أو الذات[5]، ولئن كانت بعض العلاقات بالعالم أكثر نجاح من أخرى فلأنها -حسب "تايلور" - أكثر احترام للذات والعالم وحقائقه الأخلاقية، ومن المحتمل أن بعض الهويات قد تشكلت وفقا لنموذج تكوين -إن جاز لنا القول- "فاسد" "Erronées" وأشكال تعبيرية غير اجتماعية.

لذا فإن هذه الهويات المستلبة وغير الأصيلة التي ينبغي أن نتَّخذها موضوعاً للنقد بسبب عدم قدرتها على التعبير وتحقيق قدرات الذوات على واقع الأرض.

هنا تحديداً تتجلَّى فكرة مركزية في فلسفة "تشارلز تايلور" أفاد منها "هارتموت روزا" ووظفها في أعماله حول تحوُّلات البنى الزمانية في الحداثة. استخلص "تشارلز تايلور" من توصيفه السابق ما تتميَّز به الحداثة في نظرتها إلى مفهوم الهوية. تقوم الحداثة في نظر "تايلور" على إلزام أخلاقي مقتضاه البحث داخل الأنا أو الذات عن الدلالات الأخلاقية للهوية الذاتية ومعرفة إذا ما كانت مصادرها تتواءم مع وعي كلي جوهري وأساسي بالنسبة إلينا كذوات أخلاقية. وهنا مكمن المفارقة؛ تُخفي الحداثة في داخلها عائقاً مقتضاه: لا يمكن للذوات الحداثية في لدن عالم مهيمن من طرف العقلانية الأداتية ومن قبل نزعة ذرية فردية وعقلانية مجردة، تكوين أفق من الدلالة وإعادة إنتاج مبادئ أخلاقية. ومبرر هذا المعتقد؛ لم تشهد الحداثة ظهور أخلاق الأصالة في الوقت نفسه مع أشكال سياسية رافضة للتراتبيات القديمة (ظهور المشروع الديموقراطي) فحسب: بل كانت أيضاً موطناً للنزعة الفردية المغالية التي انبثقت منذ القرن السابع عشر من لدن اقتصاد يمنح للمؤسسة والسوق دوراً مركزياً. والمحصلة يمتزج البحث عن الاصالة –وهذه هي المفارقة- مع سيطرة العقلانية الأداتية والنظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يشجع النزعة الفردية، والتي تم التفكير فيها خارج كل تكوين جسدي وكل موقف حواري وعاطفي وأشكال الحياة التقليدية[6]. لا يمنح الفرد الحداثي المستقل للعلاقات التي تُكَوِّنُهُ كـ"ذات" إلاَّ دوراً أداتياً وهذا ما يقود في النهاية الى تشكيل ذات متجاهلة لمتطلبات العالم لحساب حياة متمركز حول الفرد. تقوم العلاقة الأداتية على فكرة أنه من الممكن ضمان المرء بذاته لظهوره الخاص، أن "يختار ذاته دون معرفة أو الاعتراف بأفاق أخرى من المعنى عدا حرية الاختيار[7]. وعليه يذهب "تايلور" أبعد من ذلك جازماً بأن النزعة الفردية الذرية والأداتية لا تروم تهديم فكرة الأصالة فحسب، بل غرضها هو

التقسيم الاجتماعي الذي يهدد كل مشروع مشترك أو المشروع الديموقراطي[8]؛ إنها تقود الى إضعاف الرَّوابط العاطفية وتدمر التَّشاركية السياسية بإفراغ الديموقراطية من محتواها. هكذا تتحوَّل الطاقة السياسية لأفراد المجتمع إلى مصدر للقلق، ويصير من الصعب تعبئة الأغلبية الديموقراطية حول السياسة والبرامج المشتركة. وغياب الذوات الحديثة عن المجتمع السياسي يولد في النهاية إحساساً بالعجز والاغتراب يتناقض مع قيم المجتمع الديموقراطي الفاعل والحي.

نلمس في تشخيص "تشارلز تايلور" لأمراض المجتمعات الحديثة نقداً في الوقت نفسه لصعوبات المجتمعات الحداثية المتأخرة التي تقف عائقاً أمام تحقيقها لفكرة الأصالة التي أشرنا إليها أعلاه، ومن ثم لا تهدف فلسفته الأخلاقية والسياسية إلى الكشف عن هذه الأمراض فحسب، ولكن أيضاً إيجاد علاجات للنزعة الأداتية المهيمنة عليها. يقترح "تشارلز تايلور" كبديل عن هيمنة العقلانية الأداتية مستويين من الاحترام؛ الأول يطرحه على مستوى الاعتراف ويعني به احترام الآخر، والثاني على المستوى الدلالي: ويعني به العلاقة الدلالية بين الذوات والعالم. يكمن علاج أمراض الحداثة -وهذا "موقف تشارلز تايلور"- في قدرة كل فرد على بلوغ لغة صدى شخصي داخل ثقافة تخضع للهيمنة الأداتية والاستقلالية الفردية[9].

ثالثا. التسارع والاغتراب وفقدان العالم

رأينا أعلاه أن رؤية "هارتموت روزا" للحداثة تقوم في مجملها على فلسفة "تايلور"، لقد اهتم في تشخيصه لأمراض الحداثة بالوقائع الهادمة لسيرورات التسارع التقني والثقافي في المجتمعات الرَّاهنة. وفي هذا التوجه خصَّص دراسة نظرية متمركزة حول مسألة "التسارع" في الحداثة جعل منه مبدءً لها. لقد استكنه "هارتموت روزا" التسارع كتزايد كمي لوحدات الزمان (أو تقلص الزمن بالنسبة لمعطى كمي ثابت)[10]، واعتبره ظاهرة معقدة قسمه إلى ثلاثة أبعاد، انطلق في البداية من "التسارع التقني" l'accélération technique الذي نلحظ تزايده أكثر فأكثر في مجال التَّواصل والتنقل والإنتاج والتوزيع واستهلاك السلع. ومن نتائجه هو التحول الجذري في النظام الزمكاني للمجتمع: أعني إدراك الزمان كزمان مضغوط يُقلِّص المكان بفضل سرعة وسائل النقل والاتصالات ووسائل التواصل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وخلافاً للتسارع التقني، يحصل داخل المجتمع تسارعاً في التغيير الاجتماعي الذي يقود الى تسارع المجتمع ذاته l'accélération de la société [11]؛ لأن إيقاع التغييرات هو ذاته بصدد التغيُّر: فالحاضر يتقلص وذلك داخل مجموعة من الأبعاد: سياسية ومهنية وعائلية. وإلى هذا ينضاف في نظر "هارتموت روزا" "تسارع إيقاع الحياة" " l'accélération du rythme de vie" الذي يتميز عن نمطي التسارع السابقين بما يتضمنه من سرعة وتقلص للأفعال داخل النشاطات الاعتيادية، بمعنى قدرتنا على أن ننجز الكثير من الأشياء في وقت قصير، وهو يشير، فضلاً عن ذلك، إلى خبرة يعايشها الأفراد الاجتماعيين ومقتضاها الافتقار الى الوقت واستنزاف الذات في اللَّهث دون توقف وراء الساعة. يزداد شعورنا -يوماً بعد يوم- بالحاجة إلى الزمن الذي استحال إلى مادة استهلاكية أضحت نادرة لذلك "يشعر الناس بالعجلة وكأنهم واقعين تحت ضغط الزمن، أو بعبارة أخرى، كأن لديهم ذلك الشعور أو الانطباع بأن الوقت يمر بسرعة فائقة عما كان عليه الحال في الزمن الماضي، لذلك

تجدهم يشتكون دوما وفي كل حين من هذه السرعة الفائقة التي لم تعد تسمح لهم بإشباع وتيرة حياتهم الاجتماعية"[12].

ما يُميز المجتمعات الحديثة هو تسارع ايقاع الحياة وهو يرجع إلى تزايد هائل في معدل التسارع التقني بينما يتقلص الزمن في الوقت نفسه. إذ تعايش أغلبية الذوات في الحداثة المتأخرة تجربة الافتقار إلى الزمان وما يترتب عنه من قلق، وهذه المظاهر يعتبرها "هارتموت روزا" كأشكال سلبية من التسارع[13]، ترتبط بذاتية تتشكل داخل السيولة كما أشار إلى ذلك "سيجموند باومان" "Zygmunt Bauman" (1925- 2017م) بحيث تخضع الذوات دائماً لمتطلبات الاستعجال، وتحت هاته السلطة تنهار استقلالية الأفراد والشروط التي تضمن وجودها.

يرُجع "هارتموت روزا" هذه الأشكال السلبية من التسارع إلى عدم التزامن داخل المجتمعات الرَّاهنة، ويمكن ملاحظة ظاهرة عدم التزامن بوضوح في مجال السياسة والفضاء التقنو- اقتصادي. دأبنا على اعتبار السياسة إطاراً يوازن بين القرارات ذات الصِّلة بالاقتصاد والتكنولوجيا والعلم انطلاقاً من فرضية مؤداها أن ثمة تزامن ممكن بين اتخاذ القرار السياسي والتطور الاجتماعي، لكنها، أي السياسة، قلَّما تبلغ هذا الوصل الفاعل بين السيرورات التكنولوجية المتسارعة؛ فهي تبقى دائماً متأخرة قياساً إليها، ومبرر هذا التَّوتر هو كون الممارسة الديموقراطية تستغرق وقتا لتنظيم الجمهور والتعرف على الجماعات الاجتماعية التي تُكوِّنها، ثم تستغرق بعد ذلك وقتا أطول لصياغة الحجج واختبارها من أجل بلوغ التوافق قبل اتخاذ القرار التداولي[14]. إن الوتيرة البطيئة لاتخاذ القرار السياسي الديموقراطي القائم على الإرادة الجماعية يغذي فكرة أن السياسة تعوق العمل الاجتماعي والاقتصادي والتقني المتسارع، الى درجة أننا انتقلنا - في بداية الحداثة- من صورة سياسة مقرونة بالحركية الاجتماعية الى تصور للسياسة كعامل يمنع من التسارع المنبثق في فضاء الحداثة المتأخرة،

والمحصلة إذا كان عدم التزامن بين السياسة والتطور الاجتماعي ليس إلاَّ مظهراً واحداً من التَّجليات العديدة للحداثة المتأخرة، فهو أيضا واحد من أعراض التسارع المرضية في المجتمعات الحداثية المُتقدمة. لقد أدرك "هارتمود روزا" إلى أي درجة تعجز الذوات المنخرطة في لدن الحداثة المتأخرة المفرطة في التسارع عن: "إعادة التوافق وتقويم الأفاق الزمنية المختلفة لحياتهم: النماذج والبنى والأفاق والمنظوريات التي تطبع أفعالنا اليومية، إذ تنفصل أكثر فأكثر عن التوقعات والأفاق التي نطورها من أجل حياتنا"[15].

وهذه هي صورة الاغتراب الذي يعاني منه الانسان في الحداثة الغربية المتأخرة، فصور التسارع كما تحدث عنها "هارتموت روزا" تؤدي إلى تشوه العلاقة بين الأنا والعالم، فزيادة على فقدان الذات وتآكل الهوية الثابتة، يعتبر هذا التَّشوه كشكل من أشكال الاغتراب[16]، وعليه يرتبط التحليل النقدي للتسارع بمفهوم "الاغتراب" الذي أعطاه "روزا" دلالات وأبعاد جديدة من خلال وصله – كما ألمحنا أعلاه- بأطروحة الاستقلالية في الحداثة: إن الاغتراب هو فقدان للذات لما تتميز به الأخيرة من قدرة على التحديد الذاتي، ويصير الاغتراب فاعلاً حينما تدفع بنى المجتمع المعاصر الزمانية بالذوات إلى السير في مجرى أفعال لم يختاروها حينما شرعوا في الفعل ضمن زمن مهيمن[17]. لقد أدرك "هارتموت روزا" محدودية مفهوم الاغتراب المتأثل على الهيمنة والاستقلالية، لذلك عمل على صياغة مفهوم جديد يتجاوز التصور القديم الضيق المحصور في هاذين البعدين. لهذا السبب لجأ الى صياغة تعريف للاغتراب أعطاه أبعاد مختلفة يجسد جميع عناصر العالم المختلفة (المكان، الشيء، الفعل، الزمانية، العلاقات) ويتيح فحص أثاره تحت هيمنة مفهوم السرعة. يتجلى في ضوء هذا المفهوم الموسع عن الاغتراب الجانب السلبي للتسارع ليس فقط لأنه يحرم الافراد من قدرتهم على الاختيار (الاستقلالية) ولكن أيضا لأنه عائق يقف أمام تحقيقهم لعلاقاتهم الأصيلة بالعالم، لما يجعلهم غير قادرين على فهم هذا الأخير. وبما أن

إدراك الأشياء والخبرات بالعالم يتطلب الانتباه والاهتمام وفترة من الزمن، فإن بنى الزمان لا يمكن أن تتسارع إلى الأبد ولا يمكن تحمل دائماً عواقبه. إن الثمن الذي ندفعه مقابل هذا الإيقاع أو الوتيرة العالية هو فقدان العالم: لا يرجع الاغتراب الذي يخلفه التسارع الى كينونتنا الداخلية الثابتة غير القابلة للتغير ولكن يرجع إلى قدرتنا على امتلاك العالم. لقد أضحى العالم بالنسبة للأفراد في الحداثة المتأخرة صامتاً وبارداً وكئيباً وغير مرغوب. واذاك أصبح صمت العالم القائم على صمم العلاقة أنا- عالم سبباً لعوامل قلق عظيم ودائم في كل تشخيص للأمراض التي نجدها في التحليلات الاجتماعية النقدية للحداثة[18].

رابعا. الصدى والتأسيس لعلاقة أصيلة بالعالم

يقترح "هارتموت روزا" مفهوماً مقابلا للاغتراب وهو "الصدى"، مفهوم يسمح بوضع أطر جديدة لعلاقة ناجحة بالعالم. ولا يسعنا فهمها إلاَّ من خلال كل آثارها حينما نعيد موضعتها في إطار الفلسفة الأخلاقية والسياسية لـ"تشارلز تايلور" كما تتجلى على خلفية النظرية الاجتماعية لـ"هاتموت روزا". يثير "هارتموت روزا" في هذا المعنى امكانية "إعادة ادماج مفهوم الاغتراب داخل النظرية النقدية المعاصرة" بفضل نقد "البنى الزمانية للمجتمع"، أين تشير النتائج الاستيلابية، وهذه عبارته: "إلى طريق واعدة أكثر للإمكانيات المستقبلية للنظرية النقدية"[19] . لذلك لا يسعنا الوقوف على الدلالة الحقيقة لمفهوم الصدى الا إذا انطلقنا من توصيف "تشارلز تايلور" لها، والتي وظفها "روزا "بوعي وامتياز في مشروعه.

لقد أقام "تشارلز تايلور" قسماً من فلسفته الأخلاقية على مفهوم "الصدى"، أين كشف عن اضطرابات الحداثة عبر الاستعانة بفكرة الامراض التي تتمظهر في الأداتية وفقدان المعنى والتشظي الاجتماعي. وتصور علاجاً لهاته الاضطرابات صاغه ضمن مشروعه المتمركز حول نظريته الأخلاقية والسياسة. إن "سياسته عن الاعتراف" المتمركزة حول الاحترام والتعدد هي واحدة من

وجوهه، مثل أخلاقه عن الأصالة، التي من خلالهما تبحث الذات عن تشكيل هوياتها لتحيا حياة أصيلة. لا تعبر الأصالة عند "تشارلز تايلور" عن طريقة في وجود أو الكينونة ولكن هي صورة من البحث عن ذات ترتبط بالعالم والآخرين غرضها التقصي الدَّائم عن هوية ثابتة، والتي تسعى إلى تحقيقها مسترشدة بمعنى الخير دون أن تعبر عنه أو أن تعي ذلك[20]. فلا يسع الذات أن تفهم ذاتها دون الإحالة إلى تصور أخلاقي يحدد ما هو خير أو شر، وكونها تصير ذاتا فهذا يتوقف على ما تحمله من خير. إن التزام الذات بما تحمله من خير سيكون أقوى، ولا تكوّن هويتها إلاَّ بالرجوع إلى هذه الصلة وسبل تقييمها[21] . وإدراك الطبقات المختلفة لهذه الصلة بالخير يتم بفضل الأفراد وعلاقتهم بالعالم. فالصلة القوية تتحدد كهوية بفضل الخير الذي يعتبر جوهريا لوجود الأفراد، أما الصلة الضعيفة فتعبر عن التزام متراخ تجاه خير أقل حسماً، صلة مفقودة تعبر عن خير يحترمه الفرد دون أن يقتفي أثره بفاعلية، والمحصلة صلة تقف على مبعدة من الخير لا يمتلك الفرد عنه إلا معرفة غير محددة وهو يحترمها دون أن تكون لديه صلة بها ودون الالتزام بها.

يتحدث "تشارلز تايلور" عن صدى شخصي عندما تصير الرابطة بن الأنا والخير موضوعاً لتقييم صارم. لجهة أن السبيل الوحيد لاستكشاف النسق الذي تنخرط فيه الذات من أجل تحديد المصادر الأخلاقية داخل مجتمع حديث يفتقر الى نسق دلالة كلي -بوسع الجميع الولوج إليه- يتطلب أولاً المرور بهذا الوجه من الصدى الشخصي[22]. كما أن الصدى عند "تشارلز تايلور" هو الصورة التي تأخذها هذه العلاقة عندما تكون موائمة لالتزام أو علاقة حساسة أين تكون الذات منغمسة في انفعالاتها، عبر بلوغ القدرة على الاستجابة بطريقة حساسة. إن الصدى هو أيضاً ما يسمح للذوات بالتوجه الذاتي عبر الاختيار بين مختلف الأفعال الخيرة من بين تعدد الممكنات بفضل تفضيل أحداهما أو العزوف أو النفور الذي يظهر داخل الالتزام الحسي. هكذا يتم تجريب "الصدى الشخصي"

–أوَّلاً وقبل كل شيء- في ملاحظة نشاط فرد ما وسلوكياته، وفي أعقاب هذه الخبرة من الممكن أن نمنح للذات، التي صارت فناناً أو حرفياً أو رياضياً أو قاضياً، دوافع تسمح لها بالاختيار من بين نشاطات ممكنة متعددة. يتم هذا الاختيار بداية، بفضل أسبقية الالتزام، بطريقة عملية ودون تفكُّر أو دون تدخل للفعل الإرادي. فلا تتشكل الأسباب الواضحة لتبرير الاختيار إلاَّ بطريقة بعدية انطلاقاً من خبرة معيشة بالصدى الشخصي[23] . تكشف الاستجابة العاطفية هذه الأفعال الخيرة وتطلع عليها الذوات الملتزمة وتقدم لها أسبابا وبواعث لتمييز هذه الأفعال الخيرة عن غيرها. إن الصدى عند "تايلور" هو التصور الذي يسمح بتحديد معايير الحياة الخيرة بأن يخدم كمرجع عملي لفلسفة أخلاقية وسياسية تستخدم لتقديم وسائل تتجاوز أمراض الحداثة.

يتوسل "هارتموت روزا" بمفهوم "الصدى الشخصي" كمفهوم معياري يسمح بتحديد الملامح العملية لحياة خيرة. وقد أشار في نهاية كتابه "الاغتراب والتسارع" سنة 2012 إلى أن الحداثة المتأخرة أفرزت مأساة صدى في العالم، والتي لا يسعنا الكشف عنها إلا بفضل فكرة "حياة خيرة" غنية بتجارب صدى متعددة الأبعاد: حياة تدخل في تردد مع محاور الصدى المتنوعة[24].

على نفس خطى "تايلور" فَهِمَ "هاتموت روزا" الصدى* بداية بمعنى الانفعالية؛ أن تكون الذوات متأثرة ومحركة أو مساءلة من طرف شيء ذي دلالة خاصة بالنسبة إليهم. فهل من الممكن الانخراط في فعل صدى مع جزء من العالم إذا كان الأخير يتموقع على مسافة بعيدة نتيجة سلوك دفاعي أو سلوك عدواني غرضه السيطرة على العالم. يتطلب الانخراط في الصدى القدرة على أن نكون متأثرين بالعالم إلى درجة الاندماج الكلي مع ما يحدث فيه. إن هذا التأثر لا يعني غياب الفعل لأنه في الجهة المقابلة أيضا يكمن الصدى، أعني القدرة على الإجابة أو الاستجابة بطريقة فاعلة إلى هاته المطالب، الاستجابة إلى باعث أو دافع ومواجهة ما أثَّر فينا[25]. يتجلى الصدى كرابطة بين الذوات في تبادل النَّظرات أو

في الحوار أين يتكشف الانصات والجواب؛ ونلفيه، فضلاً عن ذلك، في علاقة الأفراد بالطبيعة حينما يتفاعلون بينهم وبين عناصر طبيعية (السباحة والبستنة) أو مع أشياء بغرض القيام بنشاط على نحو جيد، مثل أداء معزوفة موسيقية عبر الاستعانة بأداة. وبعبارة أخرى؛ لا تنفصل تجربة الصدى بالنسبة لـ"هارتموت رومزا" عن عملية التَّحول التي يحاكي من خلالها الأفراد بعض الأجزاء من العالم، فالمحاكاة هي ثمرة لتحول أضحى ممكننا بفضل العملية الحوارية للصدى. في المقابل -وخلافاً للمحاكاة الحوارية- نلفي أن التملك هو الأداتية وهو توجه أحادي الجانب محروم من التأثر والاجابة، يختزل في النهاية إلى علاقة متأثلة على غياب العلاقة. فالتملك والمحاكاة هما اذن نموذجان متعارضان من العلاقة بالعالم، ولكن وحدها المحاكاة التي تعبر عن "الصدى".

يظهر مفهوم الصدى، إذن، كنقطة مرجعية نقدية لسوسيولوجيا تتخذ كموضوع لها اختبار العلاقات بالعالم. عمل "هارتموت روزا"- وهو في هذا لا يزال وفيا لروح النظرية النقدية لفرانكفورت - على ايجاد وسائل اختبار هذه العلاقات بطريقة اجتماعية، بتقديمه لمفاتيح عن علم اجتماع لهذه العلاقات دون التخلي عن تقييم ونقد بعض الأشكال المنخرطة في العلاقات بالعالم. يسمح تمييزه بين مختلف مجلات "الصدى" بالتمييز على المستوى الاجتماعي بين أنماط "الصدى" المختلفة بفضل أسيقة النشاطات الخاصة (العائلة العمل الرياضة الطبيعة الخ). وبعبارة أخرى؛ يسمح التمييز الذي أقامه بين محاور الصدى** الأفقية والعمودية والقطرية بدراسة الطريقة التي يترجم بها المفهوم العام للصدى بفضل العلاقة مع الآخرين والأشياء ومع المتعالي. ومنذ ذلك الوقت، اتخذ مفهوم الصدى الذي نحته "تايلور" على المستوى الفلسفي بعداً اجتماعيا أكثر عينية بفضل الجهد التصوري الكبير الذي بدله "هارتموت روزا" [26].

تتيح سوسيولوجيا العلاقة بالعالم التي طورها "هارتموت روز" متوسلاً بمفهوم الصدى إمكانية إعادة تحديد مجال علم الاجتماع النقدي في المجتمعات

المعاصرة. بيد أنه لا يروم التحقق مما هو مختلف والكشف عن شذرات العالم الناتجة عن الهيمنة بقدر ما يهدف إلى امتلاك وسائل تقييم هاته المجتمعات في ضوء معيار محايث غير تحكيمي متجذر داخل تصور عملي عن الحياة الخيرة. إذا كان الصدى يجسد هذه الحياة الخيرة المتجذرة في الممارسات الفعلية، فهو يسمح بالتحقق على نحو فعال من الأنماط الواقعية للاغتراب داخل المجتمعات الحالية عبر التعرف على الأمراض التي تخترقها. يظهر الصدى اذن كقطب مضاد للاغتراب أي العلاقة داخل غياب العلاقة، أين تكون نتائجه على تشكيل هوية الأفراد الاجتماعيين وخيمة. لا يسمح توضيح هاته الأقطاب المتعارضة بإعادة تعريف مصطلح الاغتراب في علاقته بالصدى فقط، ولكن أيضا التفكير -على المستوى الاجتماعي- في حقيقة الاغتراب لامتلاك الوسائل التي تجعل منه نقداً قادراً على فتح أفاق من أجل تجاوزه. وفي كتابه "جعل العالم غير متاحا" "Rendre le monde indisponible" نحت "هارتموت روزا" مصطلحات جديدة تتجلى على خلفية هذا القطب صدى ضد اغتراب الذي طوره في كتابه " الصدى"[27]. وأكد على أن ما يميز الصدى كونه غير متاح "l'indisponibilité" "*Unverfügbarkeit*" ويتموضع في هذا الإطار في تضاد مع الاتاحة الأداتية للعالم. نتبين من خلال هذه الفكرة التي بموجبها يكون الصدى غير متاح، عدم وجود سبيل معدّ مسبقا يقود الى الصدى ولا منهجا رسمت معالمه قبلاً يجعل مثل هاته التجربة ممكنة. وبعبارة "روزا" لا يترك الصدى نفسه بما يتسم به من طابع عدم الاتاحة ليتراكم أو يتم تخزينه ولا أن ينمو بطريقة أداتيه[28]. فالصدى يتمرد على منطق الاعلاء والتحسين والتطوير الاجتماعي المسيطر في المجتمعات الحديثة؛ ويتجلى هكذا كمفهوم في توتر مع المنطق الأداتي المهيمن في الحداثة، والذي يروم اختزال العالم فيما هو قابل للحساب والسيطرة والمتوقع، ومن ثم إلى كل ما هو متاح.

أفاد "هارتموت روزا" في نقد الحداثة من نقد "تشارلزز تايلور" لها المتمحور حول هيمنة النزعة الأداتية المسبقة، بيد أنه اقترح قراءة نقدية جديدة، بتوسيع تطبيق مشروع "تايلور" النقدي على تحول البنى الزمانية والتي يستخلص منها تصوراً للحداثة بما هي تكوين سوسيو- ثقافي قائم على مبدأ استقرار النمو الاقتصادي والتسارع التقني والتجديد الثقافي. لا يمكن للمجتمعات الحديثة أن تستقر إلاَّ وفقا لنموذج التنامي l'accroissement ، لأنها مجبرة على أن تجعل العالم متاح دائماً عندما تضعه تحت تصرفها من خلال التقنية والاقتصاد والسياسة[29]. بيد أن هذه العلاقة القلقة والعنيفة بالعالم أضحت تحت تأثير من التكوين السوسيو-ثقافي الحديث -الذي استغرق ظهوره ثلاثة قرون،- علاقة طبيعية حينما ترسخ الاعتقاد بأن جوهر المشروع الحداثي يكمن في جعل العالم متاحاً عبر اخضاعه للسيطرة. فهل العالم بالنسبة للحداثة هو المجال الذي تمارس فيه العنف؟ أعني المجال الذي نفهمه ونعرفه ونستغله من أجل تملكه والسيطرة عليه؟ هذه الاستراتيجية التي تهدف إلى جعل العالم متاحاً، والمدفوعة من طرف لعبة التنامي، لا يثيرها التَّعطش إلى مراكمة المصالح والتملك أكثر مما يثيرها الخوف من الحصول على القليل ثم ما هو أقل[30]. وعليه يغرف الخوف من عدم التملك من حاجة الحداثة إلى التوسع: هذه هي أطروحة "هارتموت روزا" التي تفضح ألاعيب الحداثة؛ فعوض أن تثمن الصدى في العلاقات الاجتماعية كان غرضها التأسيس لكل شيء من خلال السيطرة والهيمنة.

لعلنا ندرك الآن أن غرض "هارتموت روزا" من نحته لمفهومه عن الصدى هو التأسيس لعلاقة أصيلة مع العالم، وهذا ما يقودنا ضرورة إلى مناقشة وجه آخر من سوسيولوجيا الصدى النقدية، أعني توصيفه لنظريته عن الصدى ضد كل صراع يحيل منذ الوهلة الأولى الى النزعة الأداتية. لم ير "روزا" في نظرية الصدى النقدية امتداداً أو استمرارية لنظرية "أكسيل هونيت" "Axel Honneth" (1949م- ...) عن الصراع من أجل الاعتراف كما كانت الأخيرة

استمرارية لنظرية "هابرماس" عن التواصل، بل تم تصورها كبديل عنها تقطع كل صلة بها. يُباعد "هارتموت روزا" على نحو مطلق بين الصدى والاعتراف –في صيغته الهونتية- بسبب تجذر الأخير داخل الصراع، إن الاعتراف كما يقول: "علائقي يتحرك دائماً داخل عالم تنافسي، وهو سبب يجعله موضوعاً للصراع"[31]. لجهة أن "الاعتراف "بأحدهم (المنتصر)يتضمن تقريبا على نحو لا يمكن تجنبه ازدراء الآخر (المغلوب)". لا يوجد في نظره صراع من أجل الصدى لأن الأخير لا يدع نفسه ليفهم في سياق سجالي ضمن عالم تنافسي، فلا يسعنا أن ننخرط في صراع من أجل الصدى (خلافاً للاعتراف): فحيثما يندمج الفرد في علاقة صراع فهو مجبر على الانغلاق الذي يضعف الصدى. وهذا ما يحصل للأفراد في مواجهة عالم خطير ومليء بالتهديدات، فهم ينخرطون داخل انغلاق هيجاني يولد مقاومة عاطفية قوية وميلاً الى الصراع[32]. إنَّ الشخص الذي يعجز -لأسباب عديدة- عن ادراك العالم والآخر يسعى إلى أن يفرض نفسه أو يدافع عنها عبر تبني هذا السلوك الانغلاقي، بيد أن هذه الصعوبات التي تقف أمام بلوغ الصدى ستتنامى بشكل قوي. والنتيجة حسب "روزا " تقود كل علاقة نزاع مع العالم الى فقدان العالم ذاته لا محالة.

يدين هذا التصور عن الصدى الذي يستبعد الصراع بالكثير إلى الفرضية الفلسفية التي استعارها "تشارلزز تايلور" من " موريس ميرلوبانتي"، والتي بموجبها لا تتواجه الذات والعالم إلا إذا نتج أحدهما عن الآخر. أشار "هارتموت روزا" في مواضع عديدة إلى أن استحالة الصراع بين الذات والعالم ترجع إلى أن الذوات توجد بديا في العالم، على نحو تكون منخرطة فيه مسبقا[33]. إن القدرة على الصدى تعبر في حدّ ذاتها حسب "رورزا" عن ماهية الطبيعة الإنسانية وكل العلاقات الممكنة بالعالم؛ فالقدرة على الصدى هي عامل مُكوِّن للروح الإنساني والروح الاجتماعية والبعد الجسدي أيضاً، والشَّرارة الأولى للوعي هي الإحساس بالحضور: شيء ما موجود، شيء ما حاضر. إن الذات لا تنفصل عن العالم إلا

بخطوات صغيرة وهما لا ينقسمان إلا تبعا لصدى ديناميكي؛ نحن نتعلم خلال نشأتنا التَّمييز شيئا فشيئا، على ضوء شيء ما، بيننا نحن كذوات مُكتشفة والعالم كما نصادفه[34]. أما السبب الثاني الذي يجعلنا نرى استحالة الصراع من أجل الصدى بالنسبة لـ"هارتموت روزا" هو أن توقع أو احتساب أثار الصدى مسبقا هو أمر مستحيل: هذا الأخير يبقى غير متاح بالنسبة لكل فعل استراتيجي؛ فالصدى ليس أمراً يُخطط له من قبل أو يفهم أو يستثمر من قبل عالم أداتي، وكل المحاولات التي تسعى لكي تشكل تجربة صدى تجانب هدفها وتترك الأفراد في النهاية باردين وغير مبالين. بهذا المعنى، لا يتحقق الصراع الذي يهدف إلى تأسيس لعلاقة صدى ولا يكتمل؛ لأن عملية "الصدى" ذاتها تفلت من كل سلوك فهم أو سيطرة.

يمكننا أن نتساءل كنقد لموقف "روزا": ألم يتسرع في استبعاد وجهة نظر خصبة وخيطا رفيعا مُوَجهاً رسم معالمه "أكسيل هونيت" في كتابه "الصراع من أجل الاعتراف" حينما اقترح إعادة بناء تقليد فكري جديد طور بموجبه تصوراً غير أداتي عن الصراع خلافاً للتقليد الذي أرساه كل من "نيكولا ميكافيلي" "Niccolò Machiavelli" (1469-1527م) و"توماس هوبز" "Thomas Hobbes" (1588-1679م) ؟، أعني استكناههما للصراع بمصطلحات المنافسة من أجل حفظ الذات. ينخرط الاعتراف عند "أكسيل هونيت" -بما هو تقدير متبادل- في علاقات أخلاقية تجمع بين الشركاء في العملية التفاعلية، وهو طريقة لنسج علاقات بين الفاعلين الاجتماعيين بغرض التقليل من عدم الاحترام والتقدير[35]. بهذا المعنى ليس الصراع تنافسا يعكس نظرة أداتية غرضها البحث عن زيادة المصالح الشخصية بل عامل اجتماعي مؤثر يدعم إمكانيات إقامة روابط يتسنى للأفراد بموجبها من التفاعل والتقدير المتبادل. وهذا ما أشار إليه "زيمل " من قبل: إن الصراع هو عامل اجتماعي، إنه خالق للروابط وليس العكس. وعليه أضحى الصراع عاملاً يساعد على الادماج الاجتماعي لا على تراكم الامتيازات

وزيادة المصالح الشخصية في تنافس لا نهائي. يسمح هذا التصور برؤية شكل آخر من الصراع لا يروم تحطيم الروابط ولكن تدعيمها، تحديداً من خلال القدرة على التأثير فيمن هم منخرطون في هذه الصراعات، بأن يجعلهم حساسين لهذا الانبثاق ويشجع استجاباتهم الإيجابية. من المفترض أن هيمنة روابط الاعتراف من خلال الصراع تجعل الذوات المعنية به متأثرة –ومن ثم حساسة لهذه المتطلبات- وتدفعهم للاستجابة، ومن ثم يتحولون داخل هذا الصراع الديناميكي. بعبارة أخرى إن نجاح الصراع من أجل الاعتراف بالمعنى الذي فهمه "أكسيل هونيت" يفترض الصدى؛ فلا شيء يمنع من التفكير في مفهوم الصراع من أجل الاعتراف كشرط للصدى لا كعامل مضر به.

صحيح أن نظرية الاعتراف كما طورها "أكسيل هونيت" لم تحسن توظيف العالم وانحصرت في العلاقات البينذاتية والروابط المؤسساتية. وهذا التوجه المتجاهل للعالم كثيراً ما أشار اليه "هونيت" ذاته كواحد من نقائص هذه النظرية. لقد كان "هارتموت روزا" محقا حينما أدمج داخل هذا النقاش عناصر عن منعطف مادي كان قد تجاهله "أكسيل هونيت"؛ فلا شيء يمنع من ادراج البعد الموضوعي في التصور البينذاتي والأخلاقي للاعتراف كما طوره الأخير. يسمح مثلا التأمل في الصراع من أجل التذاوت (الذي يتجاهل العالم) بتطوير مقاربة قابلة لأن تكشف عن الصراع من أجل الاعتراف في علاقات الذوات بالعالم، عبر اختبار الحواجز التي نصادفها ضمن هذه العلاقة في صورة مقاومة أو اضطرابات عملية. غالبا ما يصير العالم - تحت نموذج الاضطراب - كموضوع للاهتمام من طرف الذوات الاجتماعية: عندما يتجلَّى العالم كاضطراب ويصير مشكلة أمام قدرتهم على الفعل، وبمصطلحات "هارتموت روزا" ذاته؛ حينما لا يعود العالم متاحاً تجتمع كل الشروط لتَدَخُّلِ الصراع الذي يهدف الى جعله متاحاً، ومن ثم البحث عن العلاقات الحوارية الهادئة للذوات مع العالم. لا يتعارض هذا التصور العلائقي عن الصراع –اللا أداتي – مع النموذج الذي

استحدثته نظرية الصدى، إنه على العكس يثريه عبر الاستعانة بهذا البعد الصراعي لا الاستراتيجي. يسمح هذا التصور عن الصراع، انطلاقا من اضطرابات العالم، المتمركز حول الجهود التي تبدلها الذوات لإيجاد صدى مع العالم بالتفكير في العملية التي بموجبها يثير الاضطراب -أي الصدى المكسور في العالم- عملية بحث حساس ومعرفي متمحور حول المظاهر الموضوعية (العالم)، تثير مثل هاته المقاربة مشكلة أخرى أمام نظرية الصدى لـ"هارتموت روزا" تغرف عن تصور متجذر في روح العالم ومتمحورة حول "الحسي" "le sensible" –ومن ثم حول اللا معرفي. فعبر الإحاطة بالعملية التي بموجبها تندفع الذوات إلى إيجاد صدى مع العالم بفضل تأمل هادئ بعيد عن كل صراع خاضع للحسابات والمقولات الأداتية، تثار أسئلة مركزية متعلقة بنوع المعرفة التي لا تهدف إلى السيطرة على العالم. يَكْمُنُ التساؤل عن مثل هذه المعرفة التي لا تروم الهيمنة على العالم، والتي في ضوئها يتم التفكير في العلاقة بالأخرين والعالم، في مركز مشروع النظرية النقدية ذاتها والمعرفة الخاصة بها وهذا ما عكسته مشاريع روادها: "ما كس هوركهايمر" و"اكسيل هونيت" مرورا بـ"ادورنو" و"ماركوز" و"هابرماس".

وعليه لا ينبغي أن نحصر الصدى في نمط واحد هو "جسد العالم" فحسب، لأن الفاعلية التأملية، زيادة على ذلك، ذات صلة بالصدى. ثمة اختلاف بين وجهين ضروريين من الصدى، الأول يتعلق بالجانب الحسي المتحقق أو الجسدي كما أكد "هارتموت روزا"، والوجه الثاني يحيل إلى "عقل متصادي" "Raison Résonante"منخرط في عملية تأمل العلاقة الكشفية للعالم. فعوضاً من استبعاد المعرفة كشكل من اللا صدى استكنهت ههنا كوجه من وجوهه[36]. يصير الصدى هكذا تفكيرا، أو بالأحرى فعل تفكير، على نحو يسمح هذا التوسيع النظري للصدى ليشمل المعرفة بإعادة احياء واحد من العناصر المفتاحية في

النظرية النقدية لفرانكفورت يتمثل في إقامة نقد للمعرفة التشييئية التي تحكم العلوم ونموذجها الموضوعي.

يقوم هذا التصور "للعقل المتصادي" داخل المجال المعرفي على مفهوم الصراع من أجل الاعتراف الذي ناقشناه أعلاه، لأن البحث عن حدود العالم المتوتر يحمل معنى خاص يتطلب جهداً من طرف الذوات للدخول في صدى -من خلال التفكير- مع العالم المضطرب. إن هذا الجهد ليس شيئا آخر عدا الصراع من أجل الفهم الذي يروم البحث عن صدى مع العالم. لا يمت الصراع هنا بأية صلة للتنافس الأداتي الذي يُخضع موضوعاته إلى عمليات حسابية بسيطة، لأن من ينخرطون في هذا الصراع ينبغي أن يكونوا متأثرين ومن ثم عليهم مضاعفة الجهود للتَّحول عن الذات من أجل التفاعل مع العالم بطريقة مناسبة. بوسعنا أن نرى هنا جهد البحث التأملي بما هو صراع أين تُقْحِم الذات كل كينونتها في النزاع وتجعل نفسها في وضع تكون قابلة للتأثر والمساءلة؛ فغايتها هي تطوير علاقة بالعالم خالية من الاضطراب والاغتراب. يأخذ الصراع هكذا صورة صراع العلاقة من أجل العلاقة ذاتها لا بتنافس نفعي بين ذوات لا يستهويهم سوى صقل استراتيجياتهم بغرض الهيمنة أو تنمية مصادرهم وزيادة مصالحهم إلى أقصى حد. هذا هو الوجه الديناميكي للصراع[37] الذي يتقدم خطوة خطوة عبر إعادة بناء الصدى الذي يقود الى تصويب أنماط الادراك المسبقة ومقولات الفهم والتصورات للدخول في رابطة مع العالم.

من الراجح أن "هارتموت روزا" قد نأى في كتاباته الأخيرة عن إدراك "الصدى" كصراع حينما أكد على مسألة الحداثة بما هي مشروع "لجعل العالم متاحا" "mise à disposition du monde"؛ لأن الحداثة في نظره ليست مجرد مشروع يروم تحقيق استقرار ديناميكي لما هو غير مستقر، ولكنها أيضاً جهد تاريخي عنيد لجعل العالم متاحاً"[38]. هذا الجهد سينتهي إلى الإخفاق لأن إمكانات جعل العالم متاحاً تخلق بشكل مفارق عدم إتاحة متنامية للعالم: بقدر ما نزداد

إلحاحاً في تتبع الصدى بقدر ما تتقلص فرص مصادفته، كيف ذلك؟ في الواقع يمكننا فهم هذه المفارقة بطريقتين مختلفتين: تعتبر الأولى أن مقولات إتاحة العالم غير ملائمة لفهم العالم، إذ ليس في وسعها سوى "الاستحواذ عليه" لأنها تطبق عليه مقولات من الخارج تمارس ضده توجها عنيفاً. لذا فالمقولات المعرفية المستخدمة من طرف الذوات في إتاحة العالم هي التي نَضَعُهَا أمام المساءلة لأنها تشتغل انطلاقاً من آلية سيطرة عنيفة لا من حوار العقل. أما الطريقة الثانية في فهم هذه الظاهرة تعتبر أن العالم يقاوم هذه المقولات ذاتها التي تجعله غير متاح للذوات، على الأقل في جزء منه. يقاوم العالم -بأنماط وجوده الخاصة- الفكر ولا يقدم نفسه إلاَّ كأجزاء أو كشظايا، ولئن كان يقاوم من خلال عدم اتاحته فهذا يوحي بأنه غير قابل للقبض عليه بوصفه عالما[39]. كل محاولة لفهمه معرضة للفشل لأن مشروع فهم العالم ذاته هو مجرد وهم؛ مرده الهوس المتزايد بالهيمنة؛ والذي رأى النور مع المشروع الحداثي في القرن السابع عشر، ثم عرف تجلياته الكبرى فيما بعد من خلال تجسيده في مجالات تميزت بهيمنة النزعة الأداتية (الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا). والمحصلة، يفسر "هارتموت روزا" رغبة الحداثة في جعل العالم متاحا من أجل السيطرة عليه بردها في النهاية الى "الخوف" من فقدانه[40] ؛ فالخوف من فقدان العالم هو الذي يغذي هذا الجهد المتعاظم، ولكنه يفتقر الى الأمل في ايجاده عبر تبني نمط معرفي محكوم عليه بالإخفاق. ان عدم قدرته على إيجاد رابط غير أداتي مع العالم يبقيه على مسافة بعيدة عنه.

خامسا. الخاتمة:

رسم "هارتموت روزا" معالم مشروع جديد هو بمثابة منعطف جذري نحت بموجبه مفاهيم مستجدة غيرت منحى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، فمفاهيم التسارع والاغتراب والصدى تؤسس لسوسيولوجيا نقدية

جديدة تلامس عمق المشكلات الاجتماعية في المجتمعات الحداثية المتأخرة، وهي دلالة على عبقرية فذة ونموذج ابداعي على غير مثال.

تتولد الأزمة التي تعاني منها المجتمعات الحديثة من تسارع ايقاع الحياة الذي يرجع إلى تضخم التسارع التقني في مقابل تقلص الزمن، وتمثل هذه المظاهر أشكالا سلبية من التسارع قادت "هاتموت روزا" إلى التأثيل لسوسيولوجيا معيارية تروم توصيف صور الاغتراب والأمراض الناجمة عن تحولات الزمن داخل هذه المجتمعات. بيد أن علاج ما يخلفه التسارع من أمراض واغتراب ليس التباطؤ بل ينبغي التفكير فيما وراء مفهوم الزمن بحثا عن إرساء علاقة أصيلة بالعالم، لذلك اقترح مفهوما جديدا هو "الصدى". فالصدى بما هو عكس لعملية التسارع وعلاج له، لا يعبر عن علاقة الذات بالزمن بل علاقتها بالعالم.

بحث روزا عن علاج هذه الأمراض وجميع مظاهر الاغتراب في مفهوم الصدى بما هو مفهوم لا ينتمي الى البنى الزمانية للمجتمعات االمعاصرة مثل التباطؤ بل بإعادة ادماج سؤال العالم، وعليه أسس لمنعطف مادي كان قد تجاهله أسلافه من ممثلي المدرسة، باهتمامه بالبعد الموضوعي في التصور البينذاتي والأخلاقي للاعتراف.

سادسا. قائمة المصادروالمراجع:

. المصادرباللغة الفرنسية:

- Hartmut Rosa, Accélération. Une critique sociale du temps, traduit de l'allemand par Didier Renault, Editions La Découverte, Paris , 2010.

- Hartmut Rosa, Aliénation et accélération. Vers une théorie critique de la modernité tardive, traduit de l'allemand par Thomas Chaumont, Editions La Découverte, Paris, 2012.

- Hartmut Rosa, Rendre le monde indisponible, traduit de l'allemand par Olivier Mannoni, Editions La Découverte, Paris , 2020.

- Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, traduit de l'allemand par Sacha Zilberfarb, Editions La Découverte, Paris, 2018.

. المراجع باللغة العربية:

- تشارلز تايلور، منابع الذات: تكون الهوية الحديثة، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2014.

- أكسيل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف: القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية، ترجمة جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى، 2015.

. المراجع باللغة الفرنسية:

- Charles Taylor, the ethics of authenticity, Harvard University Press, Massachusetts, 2003.

المقالات:

- كمال بومنير، هارتموت روزا: التسارع والاغتراب- نحو نظرية نقدية جديدة للحداثة المتأخرة، مجلة دراسات فلسفية، المجلد 10، العدد 10، 2014.

مواقع الانترنيت:

- Marc-Antoine Pencolé, Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, http://journals.openedition.org/lectures/29658, 18 juin 2022,

سابعا. الهوامش:

[1]- Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, traduit de l'allemand par Sacha Zilberfarb, Editions La Découverte, Paris, 2018, P 7.

[2]– عنوان الرسالة هو: "الهوية والبراكسيس الثقافي. الفلسفة السياسية عند تشارلز تايلور".

- « *Identität und kulturelle Praxis. Politische Philosophie nach Charles Taylor" "Identité et Praxis culturelle. La philosophie politique chez Charles Taylor ».*

[3] -Charles Taylor, the ethics of authenticity, Harvard University Press, Massachusetts, 2003, p 38- 39.

[4] - تشارلز تايلور، منابع الذات: تكون الهوية الحديثة، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2014، ص 91- 92.

[5]- Ibid, p 48- 59.

[6]- Ibid, p 118.

[7]- Ibid, p 110.

[8]- Ibid, p 118- 119.

[9]- Ibid, p 90- 91.

[10] - Hartmut Rosa, Accélération. Une critique sociale du temps, traduit de l'allemand par Didier Renault, Editions La Découverte, Paris , 2010, p 88.

[11]- Hartmut Rosa, Aliénation et accélération. Vers une théorie critique de la modernité tardive, traduit de l'allemand par Thomas Chaumont, Editions La Découverte, Paris, 2012, p 20- 25.

[12]– كمال بومنير، هارتموت روزا: التسارع والاغتراب- نحو نظرية نقدية جديدة للحداثة المتأخرة، مجلة دراسات فلسفية، المجلد 10، العدد 10، 2014، ص 14- 15.

[13]- Hartmut Rosa, Aliénation et accélération. Vers une théorie critique de la modernité tardive, Op. Cit, p 32.

[14]- Ibid, p 96.

[15]- Ibid, p 139.

[16]- كمال بومنير، هارتموت روزا: التسارع والاغتراب-نحو نظرية نقدية جديدة للحداثة المتأخرة، ص 21-22.

[17]- Hartmut Rosa, Accélération. Une critique sociale du temps, Op. Cit, p 98- 99.

[18]- Hartmut Rosa, Aliénation et accélération. Vers une théorie critique de la modernité tardive, Op. Cit, p 137- 140.

[19]- Ibid, p 139.

[20]- Charles Taylor, The ethics of authenticity, Harvard University Press, Massachusetts, 2003, p 47- 48.

[21]- تشارلز تايلور، منابع الذات: تكون الهوية الحديثة، مرجع سابق، ص 73.

[22] Charles Taylor, The ethics of authenticity, Op. Cit, p 90.

[23] - Ibid, p 91.

[24]- Hartmut Rosa, Accélération. Une critique sociale du temps, Op. Cit, p 14.

* - "الصدى" عند هارتموت روزا هو علاقة معرفية وعاطفية وجسدية بالعالم أين تتأثر الذات من جهة بجزء من العالم، وتستجيب، من جهة أخرى، للعالم بالفعل عليه بشكل عيني على نحو تحقق فعاليتها. يتميز الصدى بميزتين متكاملتين، الأولى: الانفتاح على العالم وهي القدرة على استضافة العالم والتأثر به، والثانية: القدرة على الفعل على العالم، والتعرف على نشاطنا فيه. وخلافا لعلاقة الصدى بالعالم يتحدث "روزا" عن علاقة صامتة وباردة تختزل في بعدها الأداتي، وهي علاقة سلبية بالعالم، فالصدى يترافق مع الإحساس بأننا محمولين ليس مقدوفا بنا في العالم، ان نخبره كعالم متجاوب ومنفتح وجذاب، لا كعالم منفر وخطر.

-Ma rc-Antoine Pencolé, Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, http://journals.openedition.org/lectures/29658, 18 juin 2022, p 2.

[25]- Hartmut Rosa, Rendre le monde indisponible, traduit de l'allemand par Olivier Mannoni, Editions La Découverte, Paris , 2020, p 44.

**- ميز "هارتموت روزا" بين ثلاثة محاور ممكنة للصدى، الصدى الافقي horizontale الذي يتجلى في العلاقات البينذاتية والصدى القطري diagonale الذي يكون فاعلا في عالم الأشياء الجامدة والصدى العمودي verticale الذي يتجلى في التعالي. واذا ما طبقناه على

الاختلاف الوظيفي للمجتمع يخترق كل محور العديد من الفضاءات الاجتماعية: العائلة الصداقة والسياسة فيما يتعلق بالمحور الافقي، ثم العمل والمدرسة والرياضة والاستهلاك بالنسبة للصدى القطري، وأخيرا الدين والطبيعة والفن والتاريخ بالنسبة للمحور العمودي. هذا ما يمنح التفكير طابعا أكثر تجريبية على نحو حساس لأنه يتعلق بتحديد أنماط الصدى أو الاغتراب الخاص بكل فضاء، ويصف مجموعة عينية من الممارسات من المعايير والمؤسسات.

- Marc-Antoine Pencolé, Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, Op. Cit, p 3.

[26]- Ibid, p 2- 3.

[27]- Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, Op. Cit, p 165- 169.

[28]- Hartmut Rosa, Rendre le monde indisponible, Op. Cit, p 49.

[29]- Ibid, p 17.

[30]- Ibid, p 16- 17.

[31]- Ibid, p 224.

[32]- Ibid, p 15.

[33]- Hartmut Rosa, Rendre le monde indisponible, Op. Cit, p 11.

[34]- Ibidem.

[35]- أكسيل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف: القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية، ترجمة جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص 27، 170- 171.

[36]- Hartmut Rosa, Résonance. Une sociologie de la relation au monde, Op. Cit, p 149.

[37]- Ibid, p 472.

[38]- Hartmut Rosa, Rendre le monde indisponible, Op. Cit, p 6.

[39]- Ibid, p 14- 15.

[40]- Ibid, p 29.